

النظريات العلمية في القرآن

بقلم الدكتور حسين الهراري

تشتمل هذه الرسالة على المقالات التي نشرها الدكتور
الهراري تحت هذا العنوان في مجلة الأنصار في سنتي
١٣٦٠ و ١٣٦١ الهجريتين ، مضافاً إليها تمة هذا
البحث وهي فصول قيمة لم تنشر بعد . وقد كتب مقدمة
الرسالة الأستاذ العالم الدكتور علي توفيق شوشة بك



إهداء المؤلف

[أهدى هذه الرسالة لمنبع هذا
البحث ، والعامل على ثقافتى بهذه
الروح التى أسبغت على النفس إيمانها
وتقواها ...

أهديها لأخى الشاعر محمد الميراوى]

كلمة « الأنصار » إلى قرائها :

يسر مجلة « الأنصار » التي تصدر لخدمة الفكرة العربية والثقافة الإسلامية أن تكون أول هداياها إلى قرائها هذه الرسالة الطريفة التي وضعها الدكتور حسين المهراري بعنوان « النظريات العلمية في القرآن » . هذا الموضوع لم يتناوله في العصر الحديث كتاب كثيرون ، فهو من الموضوعات المُغلّقة في دائرة الثقافة الإسلامية العصرية ، بل هو في اعتقادنا الموضوع الأول الذي سيتولد منه في مستقبل هذه الثقافة إشعاعٌ قوى شديد .

كان العلم منذ لاح فجر هذا العصر المادى بقيادة أوربا هو الصخرة الناتئة العنيدة التي انكسرت عليها سفينة الدين الذي اعتنقه الأوروبيون ، والذي قاتلوا باسمه طويلاً ، فأغرقوا بلاد الشرق من دماهم ودماء ضحاياهم مسحورين بنفوذ رجاله . لقد كانت هزيمة الصليبيين أشبه بضربة الفأس على الأرض الطيعة ، فأفاق النائمون في أوربا إلى قوةٍ في نظام الحكم ، وفي تقاليد الحرب ، وفي وجدان النفس ، وفي تقديس العلم ، لم يكونوا منها على شيء ؛ وبدأت تُذرُّ الثورة تتجمع في أعقاب هذه الهزيمة حتى انفرجت آفاق تلك البلاد عما يسمونه « عصر النهضة » ، ومنذ ذلك الحين تقدمت « العلوم » مخترقةً الحُجُب بأنوارها الكاشفة ، فلم تثبت أمامها طويلاً أساطير الكهنة في تفسير مظاهر الكون ، وظهرت الكتابات المقدسة

بما ورد فيها من العلوم المجهولة والحقائق المزعومة والأرقام الخيالية أشبه بإنشاء الأطفال منها بعمل يستحق الاحترام ، بله العناية والاهتمام . وهكذا أصبح اللواء نهائياً في يد العلم .

ولما كان الأوربيون ، الذين هدم العلم عقائدهم ، هم الذين سادوا في نفس الوقت كثيراً من الممالك الإسلامية بعد انحلالها ، كان من الطبيعي ، بل كان مما اجتهد فيه الأوربيون كثيراً ، أن يفرسوا هذا الرأي الخطير في نفوس المسلمين بالنسبة للدين الإسلامي .

ولكن العلم الصادق يأبى بطبعه أن يبشّر بغير الحقيقة ، والحقيقة في جميع مظاهرها روح هذا الدين الإسلامي ، ومصدر قوته ، وسر امتداده واندفاعه وتجديده . وهكذا جاء تقدم العلم السريع في كافة النواحي غريباً لآمال هؤلاء « المنفرّين » . فالعلم الحديث لم يصطدم بالإسلام ، وإنما تلاشى فيه . والعلم لم يختلف مع القرآن في أى نص من النصوص ، وعلى أى وجه من الوجوه ، كما اختلف صراحة مع الكتب^(١) التي في أيدي اليهود والنصارى ، وإنما ازداد العلم نوراً في نور القرآن ، واستمد ثباتاً من ثباته ، والتقى به — على الدوام — التقاء المادة الواحدة تكون على صورتين : إحداها على العموم في المعنى ، والأخرى على الخصوص فيه !

(١) من المسائل التي اصطدم العلم فيها بهذه الكتب مسألة تاريخ ظهور الانسان على الأرض ؛ فقد ورد نص في الانجيل على أن المسافة الزمنية بين « آدم » و « عيسى » لا تزيد على ٢٠٠٠ سنة ؛ وقد أثبت الآثار القديمة وجود الانسان قبل هذا التاريخ لمدى بعيد ، وأثبتت الأبحاث الجيولوجية نفس هذه الحقيقة . وهذه المسألة بالذات قامت حولها في القرن الماضي ضجة كبيرة بين القساوسة والعلماء ، ثم سكّت الأولون على مضض ، وإن كانوا لم يستحووا فيسكتوا عن تجميع المعتقدات الصحيحة !

إن آيات القرآن الكريم التي يمكننا أن نفسر بها اليوم نظريات الجيولوجيين في نشأة الحياة وأطوارها ، وتاريخ الأرض ومصيرها ، ثم ما هو أعمق من ذلك من نظريات علماء الطب والكيميائيين ، وعلماء النفس والأخلاقين ، إنما تعطي في صدقها وفي شمولها ، وفي إيجازها الذي هو غاية التبسيط والتبسط ، مظهراً واحداً من مظاهر القوة الواثقة الصادقة التي يفيض بها الإسلام في كل زمان ومكان

على أن هذا المظهر الواحد نفسه يتجدد في كل عصر وهو ثابت في حقيقته ، فتفسير علوم الحياة ومظاهر الكون يظل محتفظاً دائماً في آيات القرآن الكريم بقوة الارتباط التام بين الذهن العلمي للمفسرين وبين طبيعة العصر الذي يعيشون فيه ، وهذا وحده في إعجاز القرآن معجزة قائمة بذاتها

تبين من هذا أن تفسير آية في هذا العصر على قواعد علم من العلوم بحيث يبدو انطباق مدلول الآية تماماً مع مدلول النظرية العلمية ، ليس معناه أن هذا هو آخر ما في طوق الآية الكريمة من طاقة المضي مع التدليل العلمي ، بل هي تظل أبداً بعد هذا التفسير — كما ثبت ذلك في الماضي — محتفظة في طياتها بمسافة كبيرة للمستقبل ، حتى إذا ما جاء هذا المستقبل بمكتشفاته وآياته ، ظهرت في هذه الآية لذخائر المستقبل الجديد . مسافة جديدة وآية جديدة

القرآن والعلم

بقلم الدكتور على نوفى شوت بك

وكيل وزارة الصحة

شرّف القرآن الكريم العلم حين أقسم الله بالقلم فى قوله : « الذى علم بالقلم ، علّم الإنسان ما لم يعلم » . وفى قوله : « والقلم وما يسطرون » . وحضّ الناس جميعاً على طلب العلم من مصادره حين قال : « أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا أكثر منهم وأشدّ قوة وآثارا فى الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون » . فى هذه الآية ندب الله خلقه إلى دراسة ما نسميه اليوم الأركيولوجيا ، والأنثولوجيا والأنثريولوجيا ... وما إلى ذلك من العلوم التى تتصل بحياة الإنسان منذ بداوته حتى استحدثت الحضارات وأقامها على ما تهيأ له من علم .

والحض على التماس العلم من مصادره كثير جداً فى القرآن الكريم ، وهو إذ يحض الإنسان على الاستزادة من الحقائق يفسّح له فى الأمل ، ويعبّده بالفوز كلما اجتهد حيث يقول : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » . ونلاحظ هنا أن دائرة البحث التماساً للكشف قد وسعت فى القرآن عالين : عالم الإنسان ، والعالم اللانهاى الذى يحيط بنا وبالأرض وبالكواكب والنجوم « وزينا السماء الدنيا بمصابيح » .

ثم نص القرآن على أن العقل البشرى محدود فقال فى معرض العجز عن فهم الأسرار الكبرى : « علم ذلك عند ربى » . ووعد المتقين قبساً من علمه الذى يكشف لهم به المغاليق عن الحق فقال : « الله نور السموات

والأرض ... نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم .

وحذر من الاكتفاء بما يصل إليه الإنسان من علم قد يزهو به ويعجب ويظن أنه عرف كل شيء فقال : « وفوق كل ذي علم عليم » .

واطراد الكشف العلمى منذ الحضارة العربية حتى اليوم دليل ملموس على أنه حقيقة « فوق كل ذي علم عليم »

وقبل الإسلام لم يكن هذا رأى العلم المعروف فقد توهم « الأغارقة » أنهم بلغوا من المعرفة مداها وفهموا كل حقيقة ... فلما جاء العرب مسترشدين بتوجيه القرآن جعلوا المشاهدة والتجربة والاختبار أساس المعرفة ، ونحك الحقائق ، وعلى دربهم وبطريقتهم سار رجال النهضة العلمية الحديثة الذين وضعوا أسس العلم الحديث — وإلى هدى القرآن يعزى الفضل فى الطريقة العلمية الحديثة بأشمل معانيها .

وما كان القرآن الكريم ليترك تنبيه الناس وإعدادهم لاستقبال كل رائع مدهش من الكشوف والمخترعات فقال : « ويخلق ما لا تعلمون » يعنى أن الجديد فى علم الله لا نهاية له ولا حصر ، وأن ما يوفق إليه العلم والعلماء قليل نزر بالقياس إلى المجهول ، وأن هذا المجهول قد يفيض به الله على المختارين من خلقه أيا كانت جنسياتهم وعصورهم .

وقد أورد القرآن حقائق جليلة عن الكون والإنسان وعن الحياة وما بعدها ولن يتسع المجال لإيراد كل الحقائق التى تضمنها القرآن فلا تجزى بما يحضرني فمن ذلك قوله تعالى : « وَجَعَلْنَا^{أصله} الرياح لواقح » وهى حقيقة اهتدى إليها العلماء بعد جهد جهيد . ومثلها قوله : « ومن كل شيء خلقنا

زوجين » . فقد أصبح الرأى أن الأحياء تتميز إلى ذكر وأنثى ، حتى الميكروبات وهى أصغر ذوات الخلية الواحدة يذهب بمض العلماء الحديثين إلى أنه يمكن تمييز ذكر وأنثى فيها .

وحقيقة ثالثة من أمهات الحقائق البيولوجية يتضمنها قوله : « وجعلنا من الماء كل شىء حى » . ولم يكن العلم إلى عهد ليس ببعيد يعرف عن علم الأجنة هاتين الحقيقتين وهما « فليُنظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والرائب » و « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج » أى من نطفة خليطة مكونة من بويضة المرأة والحيوان المنوى للذكر بل لم يعرف علماء الأجنة ما جاء فى القرآن عن حياة الجنين إلا أخيراً . وإلا بعد عناء ومشقة حيث قال : « هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم يخرجكم طفلاً لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً » . « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم جعلنا النطفة علقة . فجعلنا العلقة مضغة . فخلقنا المضغة عظاماً . فكسونا العظام لحماً . ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » .

وفى دائرة علم الفلك جاء فى القرآن كثير من الحقائق نسوق منها قوله : « أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما . » « وجعلنا من الماء كل شىء حى » وقال فى الحديث عن خلق الأرض : « ثم استوى إلى السماء وهى دخان »

واليوم يقول علماء الفلك : إن الأرض انفصلت عن السماء حين كانت كتلة من بخار ونار فلما بردت انقسمت إلى تربة صلبة هى القارات والجزر ، وإلى ماء هو المحيطات والبحار ، ويُجمِع علماء التاريخ الطبيعى على أن الحياة خرجت أول ما خرجت من الماء .

وفى القرآن إشارة إلى دورة القمر حول الأرض حيث يقول :

« ويسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس » .
أما ما ورد في القرآن عن صحة الفرد والمجموع فشيء جليل لا حاجة
إلى ذكر آياته لشيوعها على كل لسان .
ففي الوضوء والاختسال نظافة البدن ، وفي الصلاة نظافة القلوب وتطهير
الأرواح ، وفي الصوم رياضة شاملة وارتفاع عن الأرضيات .
هذا يسيرٌ من كثير مما ورد في القرآن الكريم وما يتصل بالمعرفة
الإنسانية الصحيحة — ولست بحاجة إلى أن أذكر بأن هذا الذي كشفه
العلم الحديث إن هو إلا قطرة من محيط لا نهائي حضَّ الله الناس على ابتغاء
الحصول على درره . ومما هو ظاهر أيضاً أن المعرفة في القرآن شاملة تمتد
من الأبد إلى الأزل ، وتستغرق الدنيا والآخرة ، وعلمها عند ربى تبارك الله
قد أحاط بكل شيء علماً .

وإذا كان الدكتور الهراوى قد شرح المعنى العلمى فى الآيات التى أوردها
فى هذه الرسالة التى تصدرها « الأنصار » فهذا العمل المشكور يعد نهجاً علمياً
جديداً نرجو أن يعم به روح تفهم القرآن على ضوء العلم الصحيح ، وعلى
أحدث مبادئ تلك العلوم .
والواقع أن الروح القرآنية العلمية هى التى أوجدت من العرب شعباً
فاتحاً عالمياً مثقفاً ، ترك للعالم أعظم تراث علمى بُنيت عليه العلوم الحديثة ،
كما بُنى عليه العمران الذى يتمتع به نصف العالم اليوم .
والخير كل الخير أن يعمل المسلمون على نشر ثقافة دينهم ، ليبلغوا
ما بلغ آباؤهم من قبل ، وما بلغه منافسوم اليوم فى المدنية .
وأكرر الشكر للدكتور الهراوى على هذا البحث القيم وأرجو له المزيد

النظريات العلمية في القرآن

من البدهى أن القرآن الكريم لم يرسل للناس ليكون كتاباً علمياً في الفنون والمعارف العامة فيتبسط في شرح الحقائق العلمية تبسط كتب الدراسات والتخصص ، أو يتحدث إلى الناس بأسلوب الكتب العلمية أو المحاضرات ، وإلا كان كتاباً ضخماً يقع في مئات المجلدات ، فضلاً عن خروجه عن مقام الإعجاز .

ومن البدهى أيضاً ، أن العرب لم يكونوا على ثقافة علمية أو فنية منظمة تؤهلهم لمجادة النبي في الحقائق العلمية العويصة الفهم أو التعليل . ومن آيات ذلك أنهم كانوا يظنون مثلاً أن الهلال إذا بدأ صغيراً ثم استدار بداراً مسألة علمية غامضة ومحيرة ، بل هي اللغز الذي يتوجهون به إلى النبي لحله تعجيزاً له !

ونحن بعد تقدم العلوم والمعارف العامة ، ننظر اليوم إلى هذا السؤال نظرة الاستخفاف ونبتسم له . والحق أن القرآن لو أجاب على هذا السؤال جواباً علمياً على ما يفهمه الآن طلبة المدارس الابتدائية وصغار الأطفال ، لاضطرب العرب لذلك اضطراباً لا يسكنون بعده ، ولظلوا على غير هدى ؛ ثم ينتهى الأمر بعد هذه السنين الطوال بأن يسقط في عهدنا الحالى إعجاز القرآن العلمى فى هذه النقطة ، لأنها أصبحت من المعارف الابتدائية الدارجة ، ولذلك كان الجواب « يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت » جواباً محكماً فيما أنزل القرآن لأجله ، وهو حقيقة علمية ثابتة ، تدل على أن السنين الإسلامية هي قرية وليست شمسية ، ومن المدهش حقاً

أن تكون سنوات الإسلام قمرية ، فما هو السبب ؟

يقول « مارجوريت » في طعنه بالإسلام : إن السنين الهجرية لا تصلح لشيء في الحياة ، أى لا تصلح للزراعة ولا لتقسيم فصول السنة ولا لتقسيم الوقت . ولكن الباحث في علوم الحياة وارتباطها يكشف عن حقيقة باهرة في الشهور القمرية والسنين القمرية . هذه الحقيقة ترتبط بخلق الإنسان وتكوينه . فالحيض في النساء دورته في الشهور القمرية ، وشهور الحمل تحسب في كتب الولادة بالشهور القمرية وعدتها عشرة . ومن الملاحظ أن أكثر النساء يحضن في الوقت الذى يكون فيه القمر بدرًا .

هذه — أى مدة الحمل — حقيقة ثابتة معترف بها في كتب الطب ؛ والظاهر أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين دورة القمر وتكوين الأفراد ، لم يبحث عنه فنياً إلى الآن ، وهذه نقطة تحتاج للبحث والاستقصاء ، لأنها مما يتضاءل دون الإحاطة بها جهد فئة من العلماء .

إذن ، لم يكن من الإعجاز في شيء أن يجيب القرآن عن سبب صفر القمر في أول الشهر وكبره عند منتصفه ، ولكن الإعجاز الحقيقي أن لا يذكر شيئاً من ذلك .

لمثل ذلك السبب نرى أن الجانب العلمى من القرآن لا يجب تطبيقه على العلم الحديث تطبيقاً تاماً ، فالعلم يتغير ويتجدد ، والقرآن ثابت . فإذا أمكننا أن نتفهم الآية في ضوء العلم الحديث ، فقد يكون من الممكن أن تتغير وجهة النظر العلمية ، وأن تحل نظريات أخرى محلها ، فيكون تفسيرنا خطأ ، ونقع بذلك فيما وقع فيه من سبق من المفسرين .

هذه وجهة نظر لها قيمتها ، ولها وجاهتها ، ولكن من العلوم الآن

مسائل أصبحت تعد من بدهيات العلم التي لا يمكن ، بل من المستحيل أن تتغير . فكروية الأرض مثلاً حقيقة علمية لا يمكن أن تتغير أو يُشك فيها بعد أن جاب الناس حولها وفي جوفها بالبواخر والطائرات . والقرآن نفسه يُحيل كثيراً من المسائل العلمية إلى عقل الإنسان وفكره في طريقة حلها ، بل يهيب بالناس أن ينظروا ويتدبروا ويتفكروا ويتعلموا ، ليعرفوا آيات الله ويدركوا سرها ، بل يتحدى الجهل ، ويُعير الناس بعدم التعلم وضيق معلوماتهم ، ويقول في صريح العبارة : « وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم » ؛ ويقول : « وما أُوتيتُم من العلم إلا قليلاً » ؛ ويقول : « إن في ذلك لآيات للعالمين » .

هذه الآيات وأمثالها مما ورد فيه الأمر بالتفكير : « أنظروا ... تفكروا » كلها دليل على وجوب النظر في فهم الآيات وتأويلها في ضوء العلم كما يشير بذلك القرآن نفسه .

وأحب أن أنبه إلى أن الأخذ بأقوال المفسرين القدماء في كل شيء ، يجب أن يكون موضع نظر . فالقرآن تناول كل العلوم تقريباً وأشار إليها . فقد تناول : الفلك والطب والتربية والصحة العامة ، إلى غير ذلك . وقد أصبح لكل هذه العلوم إخصائيون يمكنهم تفهم معنى الآيات ومراميها على ضوء علمهم وتجاربهم .

على أن نظرتنا في علوم القرآن أن هذا الكتاب الكريم تكلم بصفة حاسمة في نتيجة العلوم لا في مقدماتها ، بل طبق هذه العلوم تطبيقاً ولم يشرحها ، تاركاً التعليل والتأويل والبحث للعقل الإنساني ؛ فقد قال مثلاً : « سبحانه الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ، ومن

أنفسهم ، ومما لا يعلمون » ؛ فهذه الآية التي سيأتى تفسيرها فيما بعد ، حكمت حكماً قاطعاً بأن الله تعالى خلق الذكر والأنثى فى النبات والحيوان ، فيما يعلم العرب وما يجهلون ؛ وعلينا أن نبحث إذا كان كل شىء خلق من ذكر وأنثى يستمر تناسله أو لا يستمر ، لأنه تعالى يقول فى آية أخرى : « ومن كل شىء خلقنا زوجين » .

فهذه آيات قاطعة بأن لكل شىء حى ذكراً وأنثى ، وعلى العلم أن يتحقق من ذلك ، وقد تحقق فعلاً .

لذلك كنا فى مطالعاتنا للقرآن الكريم ، نقف موقف الدهشة للحقائق العلمية التى أشار إليها وأصبحت ثابتة الآن ؛ ولم يكن من الممكن للعرب ولا لأى شخص عاش فى ذلك الجيل أن يتفهمها ، أو يدرك أسرارها على النحو الذى نفهمه الآن ؛ وفى كل آية من هذه الآيات كنا نتذكر الآية الكريمة التى أشارت إلى ما سيحدث فى العلوم الإنسانية من التقدم ، وهى قوله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » ؛ وفى هذا إشارة صريحة لا تقبل الشك إلى أن التطور والتقدم والاختراع والاستكشاف فى العالم ، وخصوصاً فى الإنسان نفسه (أنفسهم) — تزيد الإنسان تفهماً لإعجاز القرآن من الوجهة العلمية ، وبالتالي فى جميع أركان الحياة .

صور من التفسير العلى

الناحية النفسية — الآيات ومعانيها — تحقيق الشخصية — أسرار السحر

قلنا : إن القرآن فى أحكامه قد طبق العلوم ولم يمن بشرحها ، ولعل أظهر علم فى التطبيق هو علم النفس ، فقد أظهر علم النفس حكمة كل شىء فى أحكام القرآن فى المعاملات الإنسانية ، وفى فرض العقوبات ، وفى التربية النفسية ؛ وذلك لأنه تشريع ، والشرائع هى معالجة الأمراض الاجتماعية .

على أن الإسلام فى معالجته للنفسيات — سواء للمجتمع أو للشخص — عامل النفس معاملة الحكمة والمنطق ، وحدد لها المباح والمحرم ، وجعل القصاص فى حدود العدل الذى ينطبق تمام الانطباق مع الفرائض وإباحتها ووسائل كبجها ، تلك هى التى سماها القرآن : « حدود الله » ؛ وهى فى الحق حدود النفس التى فى طاقتها احتمالها ، وهى اللازمة لصيانة المجتمع من الفوضى والدمار .

ومسألة النفس والنفسيات تجرنا إلى البحث فى تفسير بعض الألفاظ القرآنية ؛ فقد يقال مثلاً : إن تحميل الآية القرآنية من المعانى المدنية ما لم يكن العرب يفكرون فيه ، فيه شىء كثير من الإسراف فى التأويل وتحميل الآيات معانى لم تقصدها ، ومثل هذا القول مردود ، لأن من يقوله لا يجهد نفسه فى تفهم معنى الألفاظ كما يجب أن تفهم ، لأن اللفظ الواحد فى اللغة قد يحتمل أكثر من معنى ، وفى اللغة نفسها ألفاظ

تؤدي معنيين متضادين ككلمة : « أبل » فهي مثلاً لانتهاى المرض سواء بالشفاء أو الموت . وفي القرآن ألفاظ لها معانٍ كثيرة سبق للعرب استعمالها فعلاً . فلفظة « قلب » مثلاً في القرآن وردت بعدة معانى لا يمكن أن يكون العضو المعروف بالقلب أحدها ؛ والمفسرون يقولون في تفسير هذه اللفظة وحدها عشرات الصفحات ، وكأنهم يتكلمون بلسان الإلهام ، أو يقرأون ما تمخضت عنه الأيام من علم النفس ، وما لا كتبه الألسنة من آراء « فرويد » ؛ ولننقل لك بعض معاني « القرطبي » : (صحيفة ١٦٢ من الجزء الأول عن معاني القلب) : « ختم على قلوبهم » - عدم الوعي . الطبع . الضيق . المرض . القسوة . الرين . الانصراف . الحمية . الإنكار . الفهم . وموضع الفكر والنفس .

وانظر إلى الآية « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه » ، فعنى كلمة « القلب » هنا حديثه جداً لو طبقناها على علم النفس والتحليل النفسى . فالإيمان وتقوية النفوس بالإيحاء يرد نزعات القلب ويشفى الأمراض النفسية . إذن - وهو ما نعتقده - لو فهمنا الآية القرآنية على معنى علمى لم يكن مفهوماً حال نزولها ، فذلك إعجاز يدل على أنه من المستحيل على إنسان مهما أوتي من العلم أن يفهم هذه الآية على هذا النحو ، لأن الآية القرآنية - كما قدمنا - تتحدث الحديث العلمى كنتيجة مقررة ، وعلى العلم أن يتعرف مقدمات العلوم التى تتحدث عنها الآية ، وأن يستكشف ويتقدم ، وسنرى أن القرآن ثابت المعنى ، إذ أن إعجاز الآية أن يتفهمها الناس كلهم ، ولكل منهم تأويله الصحيح .

فانظر لكلمة « شيطان » ، فإن تأويلها لغةً يصح ، وتأويلها على أنها

نزعات النفس الإنسانية يصح ، وتأويلها على أنها الرغبات المكبوتة جائز ،
ومهما اختلفت التعبيرات والتأويلات فالمعنى صحيح وسليم ، ولكن المهم
أن المعنى العلمى العميق يزيد المعنى قوة وجلالاً ، فيفهمها كل إنسان حسب
درجته من الثقافة والتعليم .

لهذا ترى أن الآيات التى وردت فى القرآن عن علوم الكون والصحة
العامة ، أو الطب أو الفلك من هذه الآيات ، نزلت على أنها نتيجة نهائية ،
وعلى العلم أن يتحرى مقدماتها وأسبابها .

ومهما يكن من الأمر ، ففي القرآن آيات علمية غاية فى الإعجاز والأحكام ،
لا يمكنك أن تمر بها من غير أن تسترعى نظرك وانتباهك من وجهة أنها
أشارت إشارة صريحة لإعجاز علمى حققته الأيام وإليك أمثلة من ذلك :

تحفيس الشهادة

فى سورة القيامة : « أychسب الإنسان أن لن نجمع عظامه . . . بلى
قادرين على أن نسوى بنانه » . هذه الآية على قصرها ، قد لا يرى الشخص
العادى فيها شيئاً من الإعجاز العلمى ، وكان المفسرون يقولون إنها تشير إلى
أن الله تعالى يمكنه أن يعيد خلق الأصابع بعد أن تفى . ولكن ليس بنان
الإنسان بأرق من عينيه فى الخلق ، أو من الوجه ، حتى يجعل القرآن
إعادتها أبلغ من إعادة بقية الأعضاء فى جميع الجسم .

يقول الواحدى فى أسباب النزول عن هذه الآية : إن عمر بن ربيعة
طلب من النبى أن يحدثه عن يوم القيامة . فلما حدثه قال عمر : لو عاينت
ذلك اليوم لم أصدقك يا محمد ولم أؤمن بك ، أو يجمع الله هذه العظام ؟
فنزلت هذه الآية ؟ !

إذن ، فقد تحدى عمر عودة بناء الانسان ، وكان الجواب تحدياً ظاهراً
لعودة الانسان بتأكيد لا يقبل الشك ، أشير إليه بإعادة البنان . فلا بد
لهذا أن يكون البنان شيئاً خارقاً للعادة وليس كباقي أعضاء الجسم ، وقد
كشف العلم عن ذلك فيما بعد . فبالرغم من أن الأصابع هي أشد أعضاء
الجسم رقة في الاحساس ومعاونة في الحياة ، فإن « بصمات الأصابع » خاصة
بالشخص نفسه ، وخطوطها تحدد شخصيته ، ولا يوجد شخصان لهما بصمة
أصابع متشابهة ، وقد أنشئت مكاتب تحقيق الشخصية على دراسة خطوط
البصمات . فالعنى المفهوم من هذه الآية أن الانسان سيعود بنفسه كما تأتى به
أقلام تحقيق الشخصية ، ولا يمكن أن يؤخذ هذا التفسير بطمن لأن ملايين
البصمات دلت على صحته واعتمده الحكومات والهيئات العلمية

أليس فى ذلك إعجاز علمى ؟ إن القرآن سبق العلم إلى هذه الحقيقة
فعلينا أن نفهم مرأى الآيات قبل أن نأخذها بألفاظها ؟ أو ليس هذا من
معانى آية « سزيرهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » ؟

على أن المهم هو أننا فهمنا هذه الآية بعد أن كشف عنها العلم ولم يبين
لنا القرآن طريقة هذا الاهتداء ، وهذا يفسر ما شرحناه آنفاً من أن القرآن
يذكر الحقائق مجردة ويترك للعقل وللعلم البحث عن سر هذا الإعجاز . فإذا
لم يمكننا أن نفهم حكمة شيء ، فعلى العلم أن يكشفه لنا ، لا أن نرمي القرآن
بالغموض ، بل نرمي أنفسنا بالقصور لأننا لم نفهم ظاهره ، فكيف يمكن
أن نفهم بواطنه ؟

أسرار السحر

« وقالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين . قال : ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم . وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون » .
في هذه الآية كل قصة السحر والسحرة ، وفيها معنى السحر وتعليمه ونوعه وشرحه وتفسيره .

« سحروا أعين الناس » هذا هو بيت القصيد ، وهذا هو معنى السحر . فالسحر نوع من التنويم المغناطيسي والساحر هو المنوم والمسحور هو الوسيط : « واسترهبوهم » أى شلوا إرادتهم وأوقعوهم تحت تأثيرهم بالخوف والوجل .

والتأثير المغناطيسى مسألة علمية تنحصر في أن المنوم يُخضع الوسيط لإرادته فإذا أعطاه ماء وقال له هذا خمر وشربه الوسيط يسكر ويترشح ، وإذا أمره بأى أمر خضع له ، وإذا قال له عن المائدة إنها بقرة تقدم وحلبها وقدم لها غذاءها من البرسيم وأخذ يمسح بعنقها . كما أن هنالك درجات بسيطة منه ، فإذا دخل شخص مثلاً أمام جماعة وأوهمهم بصفة التأكيد أن الساعة هي الحادية عشرة وهي في الواقع العاشرة فقط فأغلبهم إن لم يكن كلهم يعتقدون أن الساعة هي الحادية عشرة وهم ينظرون في ساعاتهم . وكثيراً ما يحدث هذا بين صديقين في أمور تافهة ، كأن يقول لك عن منظر أمامك فتتوهمه صحيحاً فإذا خلوت بنفسك اكتشفت الخطأ ، وكقراءتك في الصحف فقد تكون أمامك لفظة خطأ فتقرأها صحيحة بسليقتك دون أن تلاحظ خطأها .

فالسحر هو إخضاع الشخص لسلطة النوم بأمره فيطيعه ، ويشير إليه فينفذ الإشارة . وكل قوة السحرة في أعينهم وحدة نظراتهم وتأثيرهم المغناطيسى على الناس .

كان بعض الصحفيين فى رحلة إلى بلاد الهند المشهورة بكثرة فقرائها الذين يحترفون مهنة السحر ، ورأى الصحفي ساحراً يعرض بضاعته فهاله الأمر . رأى الساحر يقذف بحبل رفيع فى الهواء فانتصب الحبل كأنه معلق فى الفضاء وأخذ الساحر يصعد حتى بلغ القمة . فوجد الصحفي فى هذا المنظر موضوع مقالة يكتبها فالتقطه بالفتوغرافيا ، ولما أظهر الصورة وجد أن الحبل ممتد على الأرض والساحر يقفز فوقه على الأرض أيضاً .

لقد نوّم الساحر جمهرة المتفرجين ، ولكنه لم يسحر عين الآلة لأنها لا تخضع لإرادته إذ ليس لها إرادة تسلب . هذا هو تعليل السحر وإعجاز الآلة .

وكما أن النوم يؤثر على الشخص الحاضر أمامه فإنه يمكنه أن يؤثر عليه وينومه عن بُعد كما فى التنويم المغناطيسى . والعزيمة والتمتة ماها إلا تنويم للأيحاء المغناطيسى الذى يقول فيه النوم للوسيط : أنت نائم ، أنت مفقود الإرادة ، أنت تحت سلطتى . وهذا هو الاسترهاب !

واختلاف قوة السحرة هى فى قوة تأثيرهم على الأشخاص كما أن فى اختلاف قوة إرادة الأشخاص أنفسهم أثراً فى نجاح عملية السحر ، فأقوياء الإرادة لا يخضعون إلا لمن هو أشد منهم ، ولذلك كان العاكفون على السحرة هم من ضعاف العقول المسترهبين .

على أن هناك ظروفاً فى الحياة تشل إرادة الشخص وتضعف عزيمته

كالمرض أو الحاجة ، كما أن من الناس أقوياء الإرادة من يشل إرادتهم الارهاب والخوف والمفاجأة فانت ترى فريقاً من العقلاء يخضعون لمثل هذه المؤثرات في أمثال هذه الظروف .

هذا هو الاعجاز الثانى للآية فى قوله تعالى « واسترهبوهم » . والرهبة والتخويف من وسائل إضعاف الإرادة ، والاستسلام للتأثير الايحائى أو التنويم المغناطيسى .

ولذلك نرى ونسمع دائماً أن المشعوذين الذين يتخذون السحر صناعة لا همّ لهم إلا إدخال الرعب فى نفوس صرعاهم ، ويقومون بأعمالهم فى الظلام ويستعينون بأصوات غريبة فى التأثير . . . نقول هذا نتيجة تجارب ومشاهدات ، ولذلك إذا أردت أن تكشف سر هؤلاء فعليك أن تعتمد إلى طريقة ترهبهم بها ، وأن تعتمد إلى تخويفهم هم أنفسهم ، وبذلك ينصرف ذهنهم عن التأثير عليك وتظهر حيلتهم . وهذا ما فعله موسى بوحي من الله فلما ألقى عصاه واسترهب سحرة « فرعون » « ابتلعت » سحرهم ، أى غاب عن النظر ما كانوا يدعونه ، ولقفت إفكهم وألاعيبهم فأظهرت الحقيقة من أنه لم يكن هنالك أى شىء غير عادى .

هذه هى كل حكاية السحر وسر السحرة سردها الله فى كلمات : « سحروا أعين الناس واسترهبوهم » . « فإذا هى تلقف ما يأفكون » . ويغلب على الظن أن العصا لم تبتلع شيئاً ، بل ابتلعت الوهم الذى كان مستولياً على الناس وابتلعت التأثير المغناطيسى فرجعوا إلى عقولهم وشاهدوا الحقيقة ، فذهل السحرة لتلك القوة العليا التى سحرتهم هم أنفسهم نغروا ساجدين !

اعتزال النساء وأدب العلاقة الجنسية

سورة البقرة الآية ٢٢٢ و ٢٢٣ : « ويسألونك عن المحيض ، قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ، ولا تقربوهن حتى يطهرن . فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين . نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ... »

قبل أن نشرح الآية الكريمة يجب أن نلم بأسباب نزولها . قال الواحدى : إن العرب كانت تعامل المرأة الحائض معاملة المجوس و(النبوذيين) وذلك أن الدم يعتبر عندهم نجاسة وقذارة

وكانت المرأة نفسها تنقبذ عند الحيض مكاناً قصياً لا يكلمها أو يؤاكلها أو يشاربها إنسان . وأضاف الواحدى إلى ذلك قوله : « سأل أبو الدحداح رسول الله عن ذلك فنزلت هذه الآية — وكانت هناك عقيدة ثابتة في نفوس العرب كان اليهود قد بثوها فاعتقدوها ، وهي أن غشيان المرأة من مكانها الطبيعى وهى مدبرة أو مستلقية على وجهها يكون سبباً فى أن نسلها يأتى أحوال أو مخبولاً »

يتجلى فى هاتين الآيتين الكريمتين أدب العلاقة الجنسية بين الزوجين ، وفيهما ثقافة صحية لم يسبق للناس بها علم ، وفيهما تصحيح لموقف المرأة الحائض . فهما من هذه الوجهة نتيجة صحيحة لبحوث طبية مستفيضة لم يشر القرآن إليها ، وعلينا بما لدينا من وسائل الطب الحديث أن نعلم إذا كان هذا منطبقاً على أحدث العلوم أم لا .

وقد اتخذ جماعة المبشرين من الآية الأولى ، من غير أن يعرفوا

أسباب نزولها ، ذريعة للطعن بالقرآن فقالوا إنه لا يحصل أى أذى من الحائض طبيياً ، والواقع أن الأذى يحدث غالباً من هذه الوجهة كما أثبت الطب الحديث ذلك ، ولكننا نكشف هنا عن حكمة جليلة فى تفسير الآية فى ضوء علم النفس نعلم أن الفريزة التناسلية كافية وحدها فى الحيوانات الدنيئة لإتمام الصلة التناسلية على حالة الفطرة الأولى ، وبعد الانتهاء منها يفرق الذكر والأنثى إلى حيث لا عودة . أما فى الحيوانات الراقية فقد علمتنا المشاهدات وعلم الحياة أن الإغراء عامل كبير فى اجتذاب الجنسين . ومن وسائل الإغراء فى الحيوان نفسه ما كان بتجميل الذكر بالريش الملون الزاهى كالطاووس ، أو بتفريد مشج كالبلبل والهديل ، أو بلبس كالأسد أى أن الإغراء الطبيعى يتنوع فى الملبس واللون والمنظر والموسيقى ومثل هذه الفنون التى يظنها الإنسان من مبتدعاته وسيلة للإغراء

وقد أدركت المرأة بفطرتها وسائل الإغراء فعنيت بموضع جسدها وخاصة ما ينبت فيه الشعر فىكون فيه لحاسة الشم أثر فى تشجيع الرجل وتلافى نفوره فلهذه الحاسة أهمية كبرى لا يخططها الاستنتاج حتى فى الحيوان كالقط الزبدى أو غزال المسك ، فهذه العطور الطبيعية وسيلة قوية للإغراء ويروى لنا التاريخ أن ريشيليو كان لا يهتاج إلا على سرير مثقل بالورود والرياحين .

ولقد غيرت موهبة الكلام ورقى الإنسان طرق الإغراء فصار الإغراء الآن نفسياً أيضاً بوسائل منها عذوبة الحديث ، والطلاء والمطور والنظافة والزينة وابتكار الأزياء ، كل هذا يؤثر فى نفس الرجل فتجذب به المرأة ونفسية الرجل شديدة التأثر بأنواع الإغراء حسب مزاجه وثقافته .

أما في المرأة فهي مشتركة مع الرجل في قابليتها للاغراء ، إلا أن هناك حالات أخرى تهيئهما معاً للعلاقة الجنسية أهمها الدور الطبيعي للميل الجنسي عندها أما في الرجل فدورته حسب مزاجه قد تكون يومية ، وقد تكون على فترات بين الأيام .

أما في المرأة فوظيفتها الطبيعية مختلفة عن وظيفة الرجل ، ودور ميلها الجنسي هو نداء الطبيعة للحمل ، وهي لا تكون مهيئةً للحمل إلا مرة واحدة في الشهر تكون فترتها قبل الحيض أو بعده بنحو أسبوع .

أما في وقت الحيض فينعدم ميل المرأة تماماً وتكون كارهةً لهذا العمل ، وتتأذى منه تأذيًا شديدًا . أما بعد الحيض فذلك هو الدور الطبيعي الذي تنيقظ فيه رغبته الجنسية وتشتد .

هذا طب حديث لا شك فيه ، ومنه يتضح ما في الآيتين السابقتين من الإعجاز العلمي . فالحيض فيه أذى لأن المرأة تتأذى منه ، وفيه إيذاء لشعور الرجل الذي عرفنا من دراسة نفسيته أنه يتأثر بالمغريات من الطيب والعطور والنظافة لا بالقذارة والدم وما ينتج عنهما من روائح ، فضلاً عن أن المرأة في هذه الحالة ليست من مغريات الرجل لأنها أشبه بالمریضة . هذا معنى قوله تعالى : « قل هو أذى فاعزلوا النساء في الحيض » وبقية الآية تتمشى مع الشرح السابق ، وهو أن الفترة التي بعد الحيض ، أو قبله ، هي فترة استعداد المرأة للحمل ، وميلها الطبيعي للاختلاط الجنسي . وهنا يظهر إعجاز الفقرة التالية من صيغة الأمر في قوله تعالى : « فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله » إشارة إلى أهمية هذا الدور .

أما قوله تعالى : « فأتوا حرثكم أنى شئتم » فقد عرفنا من أسباب

نزولها حكمتها وهي هدم الخرافة القائلة بأن الطفل يكون إما أحول أو مغبولاً .
ولكن في إباحتها أيضاً سرّاً آخر هو تغيير الوضع في أحوال الوقاع ،
إذ أن له أهمية خاصة في تجديد التعارف الجنسي . ذلك لأن استمرار الزمن
بين الزوجين عدة سنين يؤثر تأثيراً نفسياً في كليهما فيقابل كل منهما هذه
المسألة بفتور . وسبب ذلك تأثر المراكز النفسية بالتمعود فلا تتنبه بالنظر
أو اللمس ، خصوصاً إذا اندفع الزوجان في أول الحياة الزوجية واستمتعا
استمتاعاً متطرفاً . فالمرأة التي تبذل في العُرى أمام زوجها تفسد عنده
الفكرة الخيالية التي يراها في جمالها ، ودوام التبرج يفسد عنده الفكرة
الخيالية التي يراها في تنسيقها وزينتها . ومن هذا يتبين لك ضرورة المحافظة
على فكرة خيالية في نفس الزوج لجمال الزوجة ، ولذلك ينصح علماء
التناسليات أن ينام كل منهما على انفراد حتى لا يطلع أحدهما على مواضع
الضعف عند الآخر ، كما أن من الواجب أن يجددوا ما بينهما وينبهوا حواسهما
بأنواع متعددة من الوقاع فذلك أحفظ لروابطهما ، وأبقى على مسرات
حياتهما ؛ فالشعوب الهمجية تعرف نوعاً واحداً من أنواع اللقاء الجنسي ،
والشعوب الراقية تعرف أنواعاً متعددة .

ولعلك بعد هذه الفقرة عرفت إعجاز آية أذى الحيض ، فرؤية الحيض
تؤثر تأثيراً سلبياً في نفس الرجل ، كما أنها تعرض المرأة عليه في أقدر حالاتها ،
وأضعف صورها . وإباحة كثرة أوضاع الواقعة من المكان الطبيعي
« من حيث أمركم الله » فيها سر من أسرار التقدم والمدنية بتجديد النفس
أرأيت أن القرآن الكريم يقرر النتيجة ويترك للناس وعلمهم الأرضي

تهذيب الفرائض الهدامة والإيحاء بالخير

« الصورة »

[سورة النساء ١٠٣ : « فإذا أطأنتم فأقيموا الصلاة
إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً » ...]

فرضت الصلاة في الإسلام بشكل خاص مع تكرارها خمس مرات
في اليوم ، ويسبقها الوضوء ، فهي في الواقع إيحاء ذاتي لتهذيب الفرائض
الهدامة في الإنسان . وهذه الفرائض الفطرية يمكن توجيهها إلى الخير وتحويل
مجرها لما يصلح المجتمع .

والإيحاء الذاتي هو طريقة نفسية لتقوية الإرادة والتغلب على المصاعب
النفسية في الشخص . وقد أصبحت هذه الطريقة شائعة في علاج الأمراض
النفسية البسيطة وتهذيب النزعات الشديدة .

ومن المعروف أن النزعات الإجرامية وراثية ، وهناك إحصائية ترد
دائماً في كتب علم النفس ، وهي أن رجلاً من عنصر شريف تزوج امرأة
تنحدر من عائلة ملوثة بالعتة والإجرام ، ثم بأخرى من عائلة من طبقتهم ،
وبعد قرون أحصيت ذريته من كلتا السيدتين فكانت ذرية الأولى ملوثة
بالجنون والإجرام ، وكانت ذرية الأخرى ناجحة مستقيمة في الحياة .

أما كون المجرم يمكن ترقية نزعاته وتهذيبها فقد صار ذلك مسألة علمية
تتلخص في تحويل الجهد النفسي من اتجاه إلى اتجاه ، أي من ضرر
إلى منفعة على شرط ألا تكون الأمراض الطفيفة قد تحولت إلى مزمنة .

مثال ذلك أن من الناس من يفكرون في أمر سيء فيريدون أن يبعدوا عنهم هذا التفكير بتفكير آخر ، ثم لا يستمروا في هذا التفكير الجديد إلا وقتاً قصيراً ينتقلوا إلى التفكير الأول ، ثم يترددوا في التفكير بين الناحيتين حتى تختل قوة تفكيرهم وتمزق شخصيتهم . ولنضرب لذلك مثلاً :

رجل فقير رأى أن لجاره ابنة جميلة كما أن له ثروة طائلة ، فاشتغى أن يستولى على الإثنين ؛ ولما فكر في ذلك وجد العقبات كثيرة ، فأراد أن يطارد هذه الفكرة فحصر تفكيره في فقره وفي حظه العاثر وفي كونه لم ينجح في أن يكون غنياً مهاباً ، فاقتم لهذه الفكرة أيضاً ، فرجع إلى الفكرة الأولى من الاعتداء على جاره ، ولم يلبث أن قرر أنه والصعوبة التي تعترضه ، فأخذ يفكر في مطاردة هذه الفكرة بضرورة ترك البلد ، والسعي وراء الرزق في جهة أخرى ، ويستمر على ذلك . . . الخ

في مثل هذه الحالة تزعزع النفس الإنسانية ويقلق الضمير . ولقد قسم علماء النفس أنواع العقول والأمزجة إلى فئات متعددة يمكن حصرها في ثلاث فئات : (١) العقل النظري (٢) الوجدان السريع (٣) الإرادة المندفعة أو المترددة .

ويهمنا في هذا البحث أن نتفهم حالة أصحاب الإرادة المندفعة ، وأصحاب الإرادة المترددة . وقد علم أن الإنسان مسير بثلاثة قوى : الدافع ، والعاطفة ، والعقل أو التفكير ، وقل من يجمع بين الثلاث ويوازن بينها ؛ والناس ينقسمون إلى ثلاث طوائف بحسب ما يتغلب في كل طائفة من العمل تحت تأثير الدافع أو العاطفة أو العقل .

فالإرادة القوية المعتدلة تنتج تفكيراً منتجاً مستقيماً سواء كان عملياً أو نظرياً ، أما أصحاب الإرادة المترددة فإنهم يتبصرون ويفكرون ولكنهم لا ينفذون ، والسبب في ذلك أنهم يركزون تفكيرهم في مسألة ، وتكون عندهم الدوافع للتنفيذ ، ثم تطرأ عليهم فكرة أخرى فيتحولون معها كلية عن التفكير الأول ، ثم يترددون بين الأفكار ويتذبذبون بين الآراء .

وإذا كان سبب هذا الضعف في معظم الأحوال « مسألة جنسية » وما يحوطها من مصاعب ومتاعب ، فإن معظم التردد في العزيمة منشأ عدم الاستقرار الفكري من هذه الوجهة لما يحوطها من الآداب الاجتماعية .

لذلك كانت الصلاة نوعاً خاصاً من الإيحاء الذاتي النقي . وإذا كانت الصلاة فريضة فإن الإيحاء بالإيمان والاستقامة مفروض في كل وقت فقد قال تعالى : (فإذا قضيتُم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم . فإذا اطمأننتُم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً) فهذا الإيحاء في الواقع توجيه للضمير الإنساني للخير ، بتكرار التذكير بما يهذب الفرائز النفسية ويوجهها في طريق الفضيلة .

وقد أصبحت هذه الطريقة شائعة في العلاج النفسي الحديث مع أن الإسلام سبقها بنحو أربعة عشر قرناً ، والواقع أن الإيمان والاعتقاد في الله أقوى أثراً من أي إيحاء ذاتي مبني على الرغبة المجردة .

وقد بطول الشرح إذا نحن قارنا بين نظريات الفلسفة القديمة والحديثة في مسألة تعريف الروح والنفس . فإذا كان القرآن قد جعلها من (أمر الله) في كنهها فإن آثارها وتوجيهاتها أصبحت الآن معروفة بما لا يخرج عن تعاليم القرآن .

والخلاصة أن الصلاة هي إيماء ذاتي مشبع بروح الثقة بالله ، مع الإقرار بضعف النفس من جهة واحدة ، وهي السطوة والبطش ، وإقرارها بحاجتها إلي ما يكبح غرائزها الهدامة التي لا تتلاءم مع المجتمع الصالح . وتكرار الصلاة في اليوم الواحد عدة مرات هو تثبيت لهذا الإيماء فيصير يقيناً ومبدأً . فإذا ما حرم العالم منه انقلبت علاقته المنظمة إلى فوضى أخلاقية كما هو الحاصل اليوم ، وتسلمت الغرائز على الناس فدفعتهم إلى العدوان على النفس والمال والعرض ، سواء كان هذا العدوان فوق سلطان القانون أو في خفية منه واحتيال عليه !

التحكم في الإرادة وترويض النفس

نظرة للمعوم من الوجهتين النفسية والطبية

[يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما

كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون]

الصوم ركن من أركان الإسلام . وللناس طرق كثيرة في التهرب من التكاليف الشرعية والدينية وليس أمامهم في تبرير إفطارهم إلا الاعتذار بالطب عن القيام بواجبهم نحو الله ولذلك نتكلم عن حكمة الصوم من الوجهة الطبية وعن منافعه .

والكلام عن الصيام من الوجهة الطبية ينقسم إلى قسمين قسم نفسي

(سيكولوجي) وقسم طبي باطني :

الوجهة النفسية

لا حاجة بنا إلى شرح أثر الجوع في إذلال النفس . والجوع يدفع بالناس أيضاً إلى مواجهة الأخطار . فالذي يروض نفسه على الجوع إنما يقوم بتجربة تمكنه من التحكم في إرادة نفسه وترويضها على المشاق

وفي الهند كثير من هذا النوع من الرياضة التي أدخلها « غاندى » في السياسة فصار إخضاعه نفسه بالجوع تحكماً في نفس الوقت في إرادة الهنود . فإذا كان الإنسان أسير رغباته ولا يمكنه أن يتمكن من إرادته كان ضعيف الغزم سهل الانقياد . أما الشخص الذي يمكنه التحكم في إرادة نفسه فهو الشخص القوى العزيمة الذي يمكنه أن يتغلب على المصاعب .

والفقراء الهنود يفعلون كثيراً من هذا في سبيل إيمانهم الدينى . فمنهم من يرفع ذراعه شهوراً حتى يتفقد ويبيس ، ومنهم من يجلس على المسامير أياماً أو شهوراً .

ومما يدلك على أن الصيام تقوية للعزيمة ورياضة نفسية أن كثيراً من الناس لم يكتفوا بالصيام فقط شهراً في العام بل أطالوا المدة إلى مدى ثلاثة شهور ، كما أن غاندى يقوَّى من إرادته ويروض نفسه على الكاره لا بالصيام على الطعام فقط بل بالصيام عن الكلام يوماً في كل أسبوع . وهو يعترف أن هذا النوع من الرياضة تقوية للإرادة ، ويقول إن أكثر الكلام الذي يتكلمه الإنسان لا لزوم له

والأطباء كثيراً ما يعجزون عن إقناع مرضاهم بالتزام نظام غذائى خاص ، فرضى البول السكرى مثلاً قليلاً ما يخضعون للنظام الغذائى الذى يتناسب مع مرضهم . وكذلك مرضى النقرس لا يطيقون أن يمتنعوا

عن المأكولات التي تضرهم ، فلو أن الناس التفتوا إلى أن الصيام نوع من التربية للإرادة ، وأنه يقوّى العزيمة وطبقوا ذلك عند ما نصيبهم أزمة من أزمات الحياة كان لهم في رياضة الجوع وسيلة لتقوية إرادتهم . وكذلك العاكفون على التدخين أو الخمر أو المكيفات الأخرى فإن هذه العادات مهما كان من أمرها مباحة أو مكروهة أو محرمة لا لزوم لها في الحياة ، فمنها ما يضر ومنها ما يجر الناس إلى مهاوى الشقاء . فإذا تربّت للعزيمة على الامتناع عن الطعام وهو أسّ من أسس الحياة كان من السهل على الناس أن يقلعوا عن عادات ضررها مؤكدة ، وهي تسوقهم إلى المرض والفقر والشقاء

وكذلك العادات الضارة - فالقامرة عادة ، والسرقعة قد تكون عادة وهم جرا من قبيح العادات - فإذا كانت إرادة الإنسان تتحكم في عواطفه بالصيام أو بعبارة أخرى بالامتناع عن الطعام ، والملاذات الأخرى ، فإن هذه التجربة النفسية رياضة على كبسج جراح النفس عن أية عادة وأى نوع من أنواع الرذيلة أو النقائص الأدبية .

الوجبة الطبية

كثير من الناس يأكلون استمتاعاً بالأكل لا سدّاً لحاجات الطبيعة ، لأن جسم الإنسان كالآلة البخارية تماماً أو كالسيارة : تستهلك من الوقود بمقدار المسافة التي تقطعها ، فإذا استهلك الآلات وقوداً أكثر مما يلزمها ترسّب الفحم على جوانبها المختلفة ، وهذا ما يحدث تماماً في الجسم ، فإذا أكل شخص أكثر مما تستلزمه حاجته فلما أن يسمن ويزداد وزنه ، وإما أن يتعرض لأمراض أخرى .

١ - فالسمنة والضحامة مرض أكثر ما يكون من كثرة استهلاك الطعام دون عمل مجهود عضلي . ومن التضخم تتأتى أمراض السمنة والنقرس والاستحالات الشحمية في الجسم . ولست أعني بذلك أن تعكف النساء مثلاً على الجوع حباً في النحافة فإن النحافة فيها تعريض لأمراض الضعف ومن الصعب على الشخص العادي أن يتبع النظام الغذائي لاحتياج الجسم إلى عدد خاص من وحدات الحرارة . ولكننا نعطي القارى فكرة عن النسبة بين الوزن والطول، إذ أن أحسن نسبة أن يكون وزن الإنسان بالكيلو جرامات معادلاً لطوله ناقص ١٠٠ سنتيمتر

فالذى طوله ١٦٠ سم أحسن وزن له ٦٠ كيلو

والذى طوله ١٧٠ سم أحسن وزن له ٧٠ كيلو وهلم جرا .

ومن هنا فائدة الصوم لضخام الأجسام ، ولكننا نرجو ألا يستعصوا عن الجوع بأكلة مشبعة أكثر من اللازم .

٢ - التخلص من الخلايا الضعيفة في الجسم .

الجسم الإنسانى دائم التغير ، ففيه خلايا تبديد وغيرها يتجدد . وفي حالة الجوع تبديد معظم الخلايا الضعيفة ويتجدد غيرها . ولذلك يشعر كثير من الناس بشيء كثير من القوة عقب شهر الصوم .

٣ - التخلص من مرهقات الجسم .

في حالة الصوم يقلع الإنسان عن كثير من عاداته الضارة بجسمه كالدخان والقهوة والمنبهات . وبعض أنصاف المسلمين يمتنعون في شهر الصوم بتاتا عن الخمر والمحرمات ، وبذلك يعطون أجسامهم فرصة للراحة وتجديد القوى .

٤ - يستعمل الجوع كمعالج ناجع في الأحوال الآتية :
التخمر المعوى المصحوب بتخمر في المواد الزلالية والنشوية ، فأجمع
علاج لهذا المرض هو الصوم لأن الفترة بين الأكلتين تكون طويلة جداً
مع أخذ العلاج الذى يصفه الطبيب .

٥ - وهناك كثير من حالات ضغط الدم ليس لها سبب ظاهر ، ومثل
هذه الحالات تكون مصحوبة بزيادة في وزن المريض ، وأجمع علاج لها
هو الصيام .

٦ - البول السكرى :

كانت طريقة العلاج قبل اكتشاف الأنسولين - الصيام . على أن
الصيام بعد اكتشافه ما يزال ضرورياً للمرضى بالبول السكرى . فالملاحظ
أن استعمال الأنسولين جعل كثيراً من الناس يظنون أنهم ما دامو يستعملونه
فإن لهم الحق في أن يأكلوا ما يشاءون . والواقع أن علاج السكر مبني على
طريقة تخفيض نسبة السكر في الدم وفي البول ، وإعطاء ما يتناسب من
الأنسولين لذلك ولكن هذا لا يعنى أن يندفع الناس في الطعام كما يشاءون ،
بل إن التغذية ينبغي أن تظل لها نسبة خاصة أيضاً .

٧ - أمراض النقرس (أي حمض البوليك - الأملاح) .

قد يكون منشأ هذه الأمراض كثرة استهلاك اللحوم أو من تغيرات
في نفس الجسم ، فالأسباب الخارجية التى تأتي من الطعام تتحسن دائماً بالصوم

٨ - أمراض القلب المصحوبة بالتورم والالتهاب الكلوى .

هذه الأمراض ينشأ عنها أوزيما أو تورم وتحسن بالصيام مع إعطاء

الطعام المناسب .

وأخيراً نقتبس فقرة من كتابات صديقنا المغفور له الدكتور عبد العزيز باشا إسماعيل ، قال :

« لقد ظهرت إحصائيات لا تقبل الشك في أن زيادة السمن يصحبها البول السكري وزيادة ضغط الدم الذاتى ، والتهاب المفاصل المزمن وغير ذلك ؛ ومع قلة الوزن يقل الاستعداد لهذه الأمراض بالنسبة نفسها ؛ وهذا هو السر في أن شركات التأمين لا تقبل تأميناً على الأشخاص الذين يزيد وزنهم إلا بشروط تثقل كلما زاد الوزن ، والصيام مدة شهر كل سنة خير وقاية من هذه الأمراض .

وهذه الأمراض تنتشر مع زيادة الحضارة والترف فقد انتشرت في أوروبا أكثر مما كانت عليه في الماضي ، وفي مصر يكاد يكون البول السكري وزيادة ضغط الدم مقصورين على الطبقات الوسطى والعليا ، وقليل ما يصيبان الفقراء . مما أغلب الظن أن ذلك هو السر في أن الصيام في الإسلام أشد منه في الأديان السابقة ، لأن الإسلام هو آخر الشرائع السماوية ، وقد جاء في زمن نحتاج فيه إلى الوقاية من أمراض تزداد كلما زاد الترف »

ونضيف إلى رأى الدكتور الكبير أن الصدمات العصبية في البلاد المتعدنية أكثر منها في البلاد الساذجة ، وهناك مثل في أمريكا يقول : « إن البول السكري ترتفع نسبته كلما هبطت أسعار البورصة » فالإرهاق في العمل من مشجعات هذا المرض ، ولا شك في أن شهر الصيام فترة للراحة من الأعمال ، والتفرغ للعبادة ، فيها كثير من الاطمئنان للنفس التي تهجر مشاغل الحياة . فهو راحة فكرية وراحة جسمية . وأخيراً أذكر أن الفضل في لفت نظرى إلى هذا المعنى يرجع إلى المرحوم أخى الشاعر الكبير محمد الهرواي الذى له على الفضل الأدبي الكبير

ورب سائل يقول : ولكن الصيام في كل هذه الحالات يحتاج إلى إرشاد طبيب في كل مرض على حدته ، والصيام الذي كُتب على المسلمين إنما كُتب على الأصحاء ، وهذا صحيح . ولكن فائدة الصيام للأصحاء هي الوقاية من هذه الأمراض ، وخصوصاً الأمراض التي جاء ذكرها فيما سبق .

وهذه الأمراض كلها تبتدىء في الإنسان تدريجياً بحيث لا يمكن الجزم بأول المرض ، فلا الشخص ولا طبيبه يمكنهما أن يعرفا أول المرض ، لأن الطب لم يتقدم بعد إلى الحد الذي يعرف فيه أسباب هذه الأمراض كلها ؛ ولكن المؤكد طبعاً أن الوقاية من كل هذه الأمراض هي في الصيام ، بل إن الوقاية فعالة جداً قبل ظهور المرض بوضوح .

صوت الضمير في الجرائم الخلقية

القول بالقضاء والقدر لا يبرر الخطأ ما دام العقل سليماً

[وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا ، والله أمرنا بها ، قل إن الله لا يأمر بالفحشاء . أتقولون على الله ما لا تعلمون]

في هذه الآية ملخص النتائج التي وصل إليها علم التناسليات ، وتكوين الإرادة والتربية الأخلاقية ، وعلم النفس القضائي .

فالإنسان بفريزته مدفوع إلى الإكثار من التناسل ، على أن يكون هذا الإكثار محدوداً بقوانين الآداب والعرف والشرائع السماوية والوضعية ولتفسير هذه الآية يجب الإلمام بمباحث علماء التناسليات ، ومن هؤلاء العلماء تجارته يجعلون مباحثهم استهتاراً بالآداب ، وترويحاً لبعض العقاقير ،

ومنهم من يصف الطرق المختلفة لتهديب هذه الغريزة .
وملخص هذه الآراء أن الغريزة التناسلية هي مصدر الفرائز ، وسر
النجاح إذا أمكن ضبطها ، وتحويل نزعاتها إلى ما ينفع المجتمع ويفيده
فإذا كانت الغريزة التناسلية لها قوانينها ولها مطالبها فليس معنى ذلك
أن تكون أداة استهتار وهدم لأسمى عواطف الإنسانية ، وسر المحبة العائلية
وإذا كانت بعض الأم لم تقيد الزواج وأباح التزاوج المؤقت على أن
يكون النسل ملكاً للدولة أو للأمة فقد ثار العالم على مثل هذا النظام
الذي عف عنه الحيوان ، والذي ظهر أن سببه راجع إلى تسلط أفراد على أمة
يريدون استغلالها فحكموها بسلطان الأباحية والغريزة
وينهنا من الوجهة الطبية من هذا البحث انتشار الأمراض السرية
بين الناس . لأن قيود الزواج هي التي تجعل نقاء النسل مضموناً ، أو تجعل
العلاج ميسوراً على الأقل
وكذلك قوانين الوراثة تجعل الناس أشد احتراساً عند انتخاب الزوجة
أو الزوج .

وهناك مضار اجتماعية أخرى من انتشار الفاحشة ، وهي عدم الزواج
وبهذا تنعدم عاطفة الأبوة والعاطفة العائلية ، مع أننا نراها في الحيوان .
فالطيور تزوج وليس فيها بقاء . وكذلك في الحياة الوحشية كالسباع
يعيش الذكر مع الأنثى في عرين واحد . أما الحيوانات الدنيئة ، أو التي
تربى استجلاباً للثروة فيكتفى لكثير من أناسها بذكر واحد .

على أن المهم في الموضوع هو أن المستهترين يريدون أن يدعوا أن كل
شيء في العالم فرض على الناس قضاء وقدر ، وأنه مكتوب عليهم فعل

ما يفعلونه من الخير والشر . وعلى هذا يريدون أن لا يتحمل العقل الإنسانى أية مسؤولية فى التصرف .

ومسؤولية العقل الإنسانى وتحملُه نتائج عمله أصبحت مسألة مسلماً بها . فالسارق مثلاً مسؤول عن السرقة ، والقاتل كذلك ، وليس من العقل فى شيء أن نعمل العمل مختارين ونعرف أننا مسئولون عنه ثم ننسبه إلى القضاء والقدر . فالإنسان فى الواقع قد زود بالعقل والفهم فإذا لم يستعملهما كان عليه عاقبة وزره . ومن المدهش أنك ترى الناس لا يتباحثون فى القضاء والقدر إلا عند عدم الاحتياط ، أو الإصراف أو الاستهتار . فمن نجح فى سبيل الحياة عزاً ذلك لنفسه ، ومن أخفق أنحى باللوم على الأقدار .

والآن بعد أن وضحت قوانين الطبيعة إلى حد كبير ، وعُرفت الأمراض والزرعات الإنسانية ووسائل تكيفها ومعالجتها ليس من الصواب فى شيء أن ننسب تصرفاتنا إلى قوة قاهرة ، أو نستكبر على الله فنُدعى أننا خلقنا على غير ما نريد .

فالإنسان كآلة الميكانيكية أو كالسيارة ، والعقل هو الذى يديرها ويوجهها . وليس من الصواب أن يقول من أخطأ القيادة متعمداً إن هذا هو القدر لأنه يعلم قوانين القيادة . ولكنه أراد مختاراً أن لا يسير فى نطاق القانون والواجب .

على أن هذا يجبرنا إلى مسألة نفسية أخرى ، وهى لماذا يعزى الناس كل خطأ للقضاء والقدر مع أنهم يعرفون أنهم مخطئون ؟

وشرح هذا بسيط : إذ أن الضمير الإنسانى حساس عند ارتكاب الإثم ، فهو يعلم تماماً أنه أخطأ مختاراً ، فينحى باللأمة على الشخص ، وهذا ما يسميه الناس « تأنيب الضمير » .

فإذا شغل هذا الضمير بالتأنيب المستمر ، حدث للشخص قلق عصبى ،

ولا بد للنفس الإنسانية أن تتخلص من هذا الوزر أو هذا التائب المستمر ؛
ولذلك تتلمس لنفسها عذراً يريحها من هذه الاضطرابات ومن « تائب
الضمير » ، فتلجأ إلى هذا التخلص بإلقاء الوزر على غيرها ، ولا تجد وسيلة
أخرى تقولها إلا أن النفس مُجبرةٌ على ذلك .

ومثل النفس الإنسانية في ذلك مثل السارق الذي يقف متهماً ومتلبساً
بالجريمة ويحاول أن يخدع القاضي ، والقاضي يكتشف الخدعة بعد الخدعة ؛
ولذلك يلجأ اللص إلى القول بالقضاء والقدر أخيراً ، استجلاً بالرحمة ،
واستشفاعاً بالله ؛ ومع ذلك ، فالقاضي يحكم عليه .

هذا هو تفسير الآية على ما يقوم عليه علم النفس الآن .

ولا شك أن هناك أمراضاً نفسية تناسلية أخرى قد تلجئ الشخص
إلى الاعتداء والجريمة ، ولكن المرض في هذه الحالة يُخْرِج الشخص
عن إرادته .

ولقد قَسَمَت مباحث الإجرام من الوجهة النفسية هذه المواضيع
إلى فئات كثيرة بطول شرحها ، وخلاصتها أن العقل ما دام في الحدود
الطبيعية فهو مسئول . أما الحدود غير الطبيعية ، فلها مباحثها ونتائجها
كما يقرر علماء هذا العلم .

ونعود إلى رد القرآن على العقل الإنساني الذي يريد أن يتخلص
من التائب بنسبة الشر إلى قوة قادرة (وجد آباءه عليها) ؛ والله سبحانه
يقول : (إن الله لا يأمر بالفحشاء ، أتقولون على الله ما لا تعلمون) ؛
وهذه الفقرة من الآية الكريمة تُحْمَلُ الإنسان أعماله الإرادية ؛ ولفظة
(ما لا تعلمون) تحيل المسألة كلها إلى العلم ، لأن موضعها في ختام الآية
يُقرّر أن العلم هو المرجع الوحيد لتحديد مسؤولية الإنسان في الأعمال الإرادية

فإذا كانت إرادة الإنسان وحده هي التي تدفعه للفاحشة ، فإن انتشارها في العالم هو نتيجة إرادة الإنسان ؛ ولكن الإنسان يقول : إن كل غريزة لها أن تفعل ما تشاء ما دام الله خلقها ؛ وهذا منطق معكوس ، فالأنانية والاعتداء وحب الاستطلاع غرائز . أما الأنانية : فتدفع للسرقة ، وتدفع لقتل المزاحم ؛ والاعتداء نتيجة طبيعية لحب التسلط ؛ والاستطلاع يدفع الإنسان للاعتداء على حقوق غيره . فلماذا يقتنع الإنسان ببدالة القوانين إذا حمته من اعتداء القوى ، ويغالط فيما يختص بالفاحشة ؟
وهناك نقطة أخرى تبين أن تبجح الإنسان في المغالطة في هذه المسألة ليس له حد إذا مست غيره . أما إذا مست شخصه ، فإنه يثوب إلى رشده .

قلت لك : إن تحميل القدر مسئولية الوزر لا يكون إلا من المعتدى نفسه ؛ أما المعتدى عليه ، المسروق ماله ، أو المهان في عرضه ، فإنه يثوب إلى رشده ويذكر الحقيقة ، وهي : أن الإنسان مختار ، وأنه طوع إرادة نفسه ، لا مسوق بقوة قاهرة .

وهذا يبين حكمة الآية ، وهي تتلخص في ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : إطاعة النفس لفعل الفاحشة بدافع النفس وحدها .

المرحلة الثانية : معرفة الإنسان أنه أتى ذنباً ومحاولته إسكات ضميره

بالتماس المآذير الكاذبة .

المرحلة الثالثة : أن صيانة الأعراض هي أمر الله ، ولا ينبغي

أن نحاول تخليص ضمائرنا على حساب اختراع أسباب غير حقيقية لتبرير عملنا ، ولا يجب أن نقول علي الله ما لا نعلم ، بل يجب أن نعلم أن أوامر الله هي للفضيلة ، والخير ، ومصلحة المجتمع الصالح في ظل الحرية التعاونية

آيات خلق الأرض ونشأة الحياة

سورة الأنبياء الآية ٢٩ :

(أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانت رتقاً ففتقناها
وجعلنا من الماء كل شيء حي) .

المعنى المفهوم من هذه الآية أن الأرض أصلها من السماء ، والسماء
كلُّ ما علا الإنسان وأظْلَمَ ؛ فإذا كان أصلها من السماء ، والسماء
فضاء ، فهي إذن جزء من كائن في السماء ، أى من الشمس باعتبارها
مصدر الكواكب الشمسية .

وتختلف هذه الآية تمام الاختلاف مع أول آيات سفر التكوين
التي تقول : (في المبدأ خلق الله السموات والأرض ، والأرض كانت
خربة وخالية ، وعلى وجه القمر ظلمة ، وروح الله يرف على وجه الماء) .
فآية القرآن الكريم يبدأ فيها تاريخ الأرض منذ انفصالها عن الشمس
وهو أول مولدها الحقيقي ؛ أما آية سفر التكوين فيبدأ فيها تاريخ الشمس
منذ برودتها واحتوائها على الماء بعد البرودة ، وهذا تاريخ متأخر
ثم إن آية القرآن أشارت إلى أنه بعد انفصال الأرض عن الأرض
بدأت الحياة على سطحها من وجود الماء ، وذلك لأنه هو أهم العناصر
للحياة إن لم يكن مصدرها .

ولم يفكر أحد منذ نزل القرآن في هذا التفسير حتى جاء « لبلاسى »
(١٧٤٩ — ١٨٢٧) الذي كان أول من قال بأن الأرض جزء منفصل
عن الشمس .

ثم راجت بعد ذلك نظريات أخرى ترد أصل الكواكب كلها إلى السديم ... ومهما تغيرت النظريات واختلفت الآراء ، فنبع الكون هو الشمس بدليل التحليل الكيماوى بواسطة الطيف الشمسى والخطوط الممتصة ، مما أثبت أن الأرض والشمس من مادة واحدة ، وكذلك النيازك . ولقد أصبح تركيب الأرض الكيماوى والشمس معروفاً فى الكتب الخاصة ، فلا داعى لتكراره هنا لأنه صار من المعلومات العامة ، اكتفاءً بذكر النتيجة ، إذ أن الشرح يطول ويخرج عن نطاق هذا البحث .

أما النقطة التى ما زالت غامضة ، فهى ظهور الحياة على وجه الأرض ، وكيف نشأت بعد أن بردت الأرض ، وتكاثفت الأبخرة فصارت ماءً ، وتبيست قشرة الأرض فصارت قارات . إن من ينظر إلى الخريطة يجد ساحلى غرب أوربا وأفريقيا الغربيين فهما نتوءات وتضاريس تكاد تتداخل تماماً مع الساحل الشرقى لأمريكا الشمالية والجنوبية لو تصورنا التصاقهما ، وكذلك نجد الساحل الغربى لهاتين القارتين مع الساحل الشرقى لآسيا .

وقد يطول الشرح جداً إذا ما أردنا الإحاطة بتاريخ العصور الجليدية التى عمت العالم ، وبكيفية تكوّن الأحجار الجيرية من طغيان البحر على اليابسة ...

هذه مواضيع طويلة ومعلومات لها مراجعها ، وإنما الذى يهمنا منها هو نشأة الحياة ، فمن المسلم به أن الأبخرة التى تكاثفت على الأرض فى أول الأمر كانت ماء عذباً ، والنظرية المعترف بها الآن أن الحياة دبّت على شكل كائن حى له خلية واحدة لا يمكننا تمييزه إذا كان حيوانياً أم نباتياً ، وهى الخلية المعروفة بالأميبا ، فى العرف الطبى هى وحدة الخلية الحيوانية ، وهى أصغر الأحياء من الوجهة الحيوانية .

ولنأخذ الآن النظرية العلمية ونقارنها بالآيات القرآنية :

النظرية العلمية

- ١ — انفصلت الأرض من الشمس
- ٢ — بردت الأرض ، وتكاثف الماء ، ودبت الحياة ،
- ٣ — دبت الحياة على الأرض بين الماء واليابسة
- ٤ — تطورت الحياة بعد أن نشأ أول نبات ، ثم وجدت الحيوانات فالإنسان .

الآيات القرآنية

- (١) « أَنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا »
 - (٢) « وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ »
 - (٣) « وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا »
 - (٤) « وَخَلَقْنَاكُمْ أَطْوَارًا »
- بقيت نقطتان :

الأولى : أن الكتب العلمية تفرض أن أول ديب للحياة على الأرض كان على شكل الأميبا ، وهي إما حيوان أو نبات من خلية واحدة ؛ ولكن وجود جراثيم أقل منها حجماً بحيث يُرى بعضها بالمجهر ، وبعضها لا يمكن رؤيته بل يمكن ترشيحه أو لا يمكن ، كل هذا لا يجعل أى فرض علمى الآن يمكن أن يحل هذا التموض ؛ والنظريات كلها مبنية على الظن ، خصوصاً الآراء التى تتعلق بالجراثيم التى لا تُرى بالمجهر ، وهل هى جراثيم أم لا ؟

والنقطة الأخرى : أن الجرائم الدقيقة تتوالد بالانقسام ، وليس لها ذكر ولا أنثى (*) .

كما أن هناك إلى جانب هاتين النقطتين مسألة الروح ، وهي تراث « آدم » من الجنة

ولقد علل المرحوم الدكتور عبد العزيز باشا اسماعيل جهل الإنسان بهذه المسائل بأنه لم يعط الحاسة التي تؤهله لإدراكها ، لأن حواس الإنسان مسخرة لخدمته فقط ، وليست مخلوقة لإدراك أكثر من ذلك .

ونضيف إلى ذلك رأينا الخاص ، وهو أن الإنسان أشبه شيء بالآلة التي تدار بالكهرباء ، أو كالجيوش في حالة الحرب . فالآلات في المصانع تستمد التيار من مركز رئيسي من المحركات ، والصانع الذي يشتغل على هذه الآلة يجهل ما يجري في محطة الكهرباء ، والجيوش التي تتحرك في ميادين القتال لا تعرف خطط القيادة ، بل تنفذ تعليماتها فقط وهي تجهل الخطة نفسها ، وتجهل الشخص الذي أوحى بها ، فالضابط والجندي في الميدان يكلفان بتنفيذ الخطة الموضوعية ، أما كيف وُضِعت هذه الخطة ، وما هي نهايتها ، فليس لهم الوسيلة إلى فهمها ، وربما كان من صالحهم أن لا يعرفوا . فهم يتحركون كما يسير الإنسان في الحياة ، في خطة مرسومة ، واختيارهم دائماً محدود .

هذه هي الحقيقة ، ولكن الإنسان إذا فكر في كيفية خلقه ، فهو كالجندي الذي قد يستنتج خطة القيادة في تفسير دفعة الحرب . ومع ذلك ، فمن المستحيل على هذا الجندي أن يعرف خطتها في ميدان غير ميدانه ،

(*) في مقدمة هذه الرسالة أشار الدكتور على شوشة بك إلى هذه النقطة .

أو ما تدبره القيادة العليا للموقعة الحاسمة . وعلى ذلك فلننظر في آيات الخلق بعد ظهور الحياة .

آيات علم الحياة

الرحمن : « من كل فاكهة زوجان »
الرعد : « ومن كل شيء خلقنا زوجين » . « وجعلنا الرياح لواقح »
يس : « سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ، ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » .

ترتبط هذه الآيات بالآيات التي سبقت في الخلق بعد آية « وجعلنا من الماء كل شيء حي » وهل خلقت النباتات والحيوانات منفصلة عن بعضها ، أم إن هناك ارتباطاً بين تكوينها وعلاقتها بالأرض والماء ؟
لقد دل علم الحياة على أن الكائنات الحية تنقسم إلى ذكر وأنثى سواء في النبات أو الحيوان ، وقد تكون هذه الأعضاء مستقلة في الأفراد في الحيوانات العليا ، أو النخيل في النباتات ، كما قد تكون أعضاء التذكير والتأنيث في عود واحد من النبات كالذرة مثلاً ويحصل التلقيح بواسطة الهواء ، وهذا إعجاز الآية « وجعلنا الرياح لواقح » ومنها نباتات كالطحلب تنمو بالانقسام ثم يأتي دور التزاوج فينشئ النبات ويتداخل على نفسه ويصير نصفه ذكراً والنصف الآخر أنثى ثم يتداخل في بعضه ثم ينفصل ثانية فيتجدد نشاطه التناسلي .

يشذ من هذه القواعد من النبات والحيوان ما كان ذا خلية واحدة إذ يتكاثر بالانقسام .

والله يقول : إن فيها ذكراً وأنثى فما كان معروفاً علمياً فقد فهم ، أما غير المعروف علمياً فله تعليقات علمية لم نعرفها بعد

فقد علمنا أن من الحيوان أو النبات ما يرى بالمجهر وما لا يرى ، وما يسمونه غير المرئي تحت الميكروسكوب . وهذا دليل على أننا لم نعرف كل عالم الجراثيم ، كما أنه لا توجد طريقة لإثبات الذكر والأنثى فيها .

وربما كانت نواة الخلية الواحدة من عنصرين ذكر وأنثى مندغمين في بعضهما ونحن لا ندري ، وليس لدينا من الطرق ما يؤهلنا لإثبات ذلك على أن الله سبحانه قد أشار إلى ذلك بقوله : (ومما لا يعلمون) . هذا تفسير . ويوجد تفسير آخر لمثل هذه الآيات نشأ عن التقدم العلمى الحديث فى الكيمياء . فقد رأى بعضهم صعوبة تصور وجود الذكر والأنثى فى الخلايا البدئية التى تتوالد بالانقسام ، وصعوبة تصور أنه من الجائز أن تكون الخلية الواحدة ذات النواة الواحدة تحتوى على بذور التذكير والتأنيث فى نفس هذه النواة . ولكن قد تكون درجة تلوين النواة أو تشعب توزيع المادة الملونة يدل على وجود جزئين فى النواة الواحدة .

على أن دراسة انقسام نواة الخلية الواحدة وانقسام النواة إلى جزئين مسألة معقدة ، فالنواة تنقسم إلى أجزاء ، وتنجذب إلى قطبين ، ثم تنفصل إلى خليتين ، وهذه العملية الجوهرية لا تزال تحت نظر العلم

ولا شك فى أن دراسة انقسام الخلية من الدراسات التى هى فوق هذا التبسيط الذى نلجأ إليه فى هذه الرسالة ، ولكن على أية حال نرى أن اختلاط مادة النواة بعد أن تنقسم إلى أجزاء ، ثم انفصالها انفصالاً تاماً يدل على أن هناك نوعاً من التلقيح الذاتى فى الحيوان أو النبات ذى الخلية الواحدة ؛ وإذا وجدت ظروف لم تهيب لنا دراسة انقسام النواة والقطبين

الذين يظهران فيها قبل الانقسام ، فقد يكون السبب أن وسائلنا الفنية لم تنهى لنا معرفة نوع أجزاء الخلية ودقائق أسرار النواة .
أما في الجملاد ، فقد عمت الآن نظرية « الألكترون » و « البروتون » فالذرة الواحدة مكونة من جزيئين : أحدهما موجب والثاني سالب ، وبالتجاذب الكهربائي تتكون الذرة . وهذا يفسر أيضاً لفظة « شيء » في آية (من كل شيء زوجين) وإذا طبقنا أيضاً نظرية أن العناصر كلها من عنصر واحد وأن الاتحاد الكهربائي بين جزيئات العناصر وعدمه هو الذي ينتج عنه تغيير أنواع العناصر وتعددتها لكان الارتباط الكهربائي بين (السالب والموجب) أو (الذكر والأنثى) هو الأساس الذي يقوم عليه العالم سواء في الأحياء والنباتات أو الجملاد ، وتكون هذه الآيات الكريمة قد سبقت التفسير العلمى وهيات الأذهان لمعرفة هذه النتائج الخطيرة الباهرة .



ملتقى شباب الإسلام في العالم العربي

يوم القيامة

القارعة : « يوم تكون الجبال كالعهن المنفوش »
« إذا زلزلت الأرض زلزالها . وأخرجت الأرض أثقالها »
« هل أتاك حديث الغاشية »

« إذا السماء انشقت وأذنت لربها وحقت . وإذا الأرض مدت ، وألقت
ما فيها وتخلت »

هذه بعض الآيات التي تصف يوم البعث ، أو آخر أيام الدنيا . وهذا الوصف بأنها قارعة تنشق لها السماء فتزلزل الأرض زلزالها ، وتخرج الأرض أثقالها وتتخلى عن حملها في يوم تكون فيه الجبال كالعهن المنفوش — هذا الوصف ينصب على أن نهاية الدنيا هي نتيجة اختلال توازن الجاذبية الكونية فيما يتعلق بالأرض ، فتخرج عن نطاق سبوحها في الفضاء اللانهائي فتسقط واختلال توازن الجاذبية الكونية مشاهد كل يوم ، وسقوط النيازك وهي حطام الكواكب مسألة معروفة ، وفي الكتب الفنية الخاصة وصف لكثير من النيازك التي سقطت ، ويوجد بالمتاحف المصرية قطع كثيرة من هذه النيازك .

وعلى ذلك فعلماء الفلك يقدرّون أن نهاية العالم تكون بأحد أمرين : إما البرودة بفناء حرارة الشمس ويقدرّون لها ملايين مختلفة من السنين ، وإما باختلال التوازن الكوني بسقوط جرم جديد من الشمس أو اختلال يحدث نتيجة عدم توازن النظام الشمسي لأسباب مختلفة يطول شرحها ويمكن الرجوع إليها في مصادرها .

ولكن القرآن يقول إن نهاية العالم ستكون باختلال التوازن في النظام الشمسي ، لأن كلمة القارعة تفيد تصادم الكواكب . وكون الجبال تستحيل إلى شبه عهن منفوش دليل على الاحتراق . والزلازل دليل على ارتجاج الكون فيتشقق وتسقط الأرض وما عليها في الفضاء : (ألفت ما فيها وتخلت) .

ومن البين أن مباحث « نهاية العالم » حديثة ؛ ولكن سردها على هذا النحو الفني في القرآن الكريم صورة من صور الإعجاز في تحديد النهاية !

(تمت الرسالة)



الكتاب القادم

الذي ستهرب الانقصار لمشتركي هذا العام الهجري

سنة ١٣٦١

عنوانه :

« الرجعية الفرعونية في صورها المختلفة »

موضوعه :

تصوير شقاء الشعب المصري في أيام الفراعنة
والاستدلال على هذا الشقاء من الآثار القاعة
وتفنيد مزاعم « المتفرعين » عن الفن واللغة والوطنية

صاحبه :

هو رجل التربية والتاريخ ... الأستاذ « ش . ع »

يقرأ القارئ في الكتب التي ستهديها مجلة الأنصار لقراءتها فكرة الجيل المسلم الجديد

لله نصركم

مجلة الفكرة العربية والسياسة الإسلامية

البلاد العربية وطن واحد

غنى أى مكان تكون فى هذا الوطن لا تتغير قيمة اشتراكك فى مجلة الأنصار
